الباب الأول

الجار والجوار في التراث

الفصل الأول : الجار عند العرب

الفصل الثاني : أسباب ظهور الجوار

الفصل الثالث : الجار في اللغة

الفصل الأول
الجار والجوار في الثُّرات

من الآدابِ التي تتحلَّىٰ بها الأمة الإسلاميةُ أدب الجارِ والجوار ، حيثُ إنَّ للمسلمين تميُّزاً في خصائلَ فاضلةٍ عُرفَتْ عنهم ، ولم تُعرف للأمم الأخرىٰ ، ومنها ما يتصل بآداب الجار ، فقد وردتنا حصيلةٌ أدبيةٌ رائعةٌ عنِ العربِ والمسلمين في مختلفِ الأعصرِ والدُّهور عن الجارِ والجوار .

ـ ولقد احتفىٰ العربُ في جاهليتهم ، والمسلمون في ظلالِ الإسلامِ بالجار ، وأجادوا رسْمَ معالم هذا الأدب الجميل الذي يُعتَبرُ منَ الآدابِ الاجتماعيةِ المهمّةِ التي حرصَ الإسلامُ الحنيفُ علىٰ تنظيمها وتقويتها ورعايتها .

ـ ولقد سجَّلَ العربُ في سجلِ مفاخرهم هذه المكرمة ، إذ رسموها شِعراً بأعذبِ الكلماتِ ، ووصفوها من خلالِ

مآثرهم ، وأمجاد آبائِهم وأجدادِهم وذويهم .

ـ ولعلَّ منْ مكارمِ أخلاقهم التي رسموها : حمايةَ الجار ، والإحسانَ إليه ، والرِّفقَ به ، كما رسموا مكارمَ أخرىٰ كالكرمِ ، والشَّجاعةِ ، والمروءةِ ، وما شابهَ ذلك .

ـ ولكنَّ العرب عدُّوا أدبَ الجارِ وحسنَ الجوارِ قيمةً اجتماعيةً كبيرةً تنبىءُ عن أخلاقهم ، فراحوا يسجّلونَ محامدهم من خلالها ، لأنَّهم يرون خلالها البقاء ، إذ يفنى الناسُ ، ولكنَّ المحامدَ باقيةٌ في قصور الثَّناء المشيّدة .

ـ وكان أهلُ الشَّرف منَ العربِ وأهلِ الجود ، يحرصون أشدَّ الحرص على تسجيلِ المآثرِ الحِسان في أوراقِ الأيامِ ، فهم يُنزِلونَ الجار منزلة خاصّةً في نفوسهم ، ويهتمون به اهتماماً بالغاً ، لأنه يذيعُ مناقبَهم ، ويثني عليهم في الحاضرِ والبادي .

ـ ومن العجيبِ أنَّ مكانةَ الجارِ في الجاهليةِ كان في الذِّروةِ العُلْيا من مكارمِ الأخلاق ، ومحاسنِ الآداب ، وجاءَ الإسلامُ فازدهرتْ هذه المكانة ، وانتعشتْ ووشّاها الإسلام بالأَجْرِ

والثَّواب ، وزيّنها بكمال الأدب ، وزهْر الآداب .

ـ إنَّ إعجابي بأدبِ الجار والجوار جعلني أرخي لقلمي العَنَان ، كي يجوبَ حضارتنا ، ويستثيرَ معالمها ، ويسجِّلَ ما رقَّ وراقَ في هذا المجال الذي يبعثُ في النفوسِ الشُّعورَ بالارتقاءِ والسُّموِ نحوَ درجاتِ الفضيلةِ والكمالِ ، وكُلُّنا مُعْجَبٌ بما شَدَا به شاعرُ الفروسيةِ عنترةُ بنُ شداد العبسيّ الجاهلي ، وهو يؤكد حُسْنَ الجوارِ للجاراتِ إذ يقول :

وأغضُّ طرفي إنْ بدتْ لي جارتي حتىٰ يُواري جارتي مأْواها

ـ إنَّه التقديرُ الكاملُ لوفاءِ العربِ في الجوارِ ؛ يقولُ الدكتور شوقي ضيف عن تمسُّك العرب بهذه المكرمة : وكانوا لا يقدّرون شيئاً كما يقدّرون الوفاءَ ، فإذا وعدَ أحدُهم وعداً ، أوفىٰ به ، وأوفتْ معه قبيلتهُ بما وعدَ ، ومن ثُمَّ أشادوا بحمايةِ الجارِ ، لأنَّهُ استجارَ بهم ، وأعطَوْهُ عهداً أنْ ينصروه[1] .

---

(١) انظر : تاريخ الأدب العربي لشوقي ضيف (العصر الجاهلي ص٦٩) .

الفصل الثاني

أسبابُ ظهور الجوار

لعلَّ الظُّروفَ التي أحاطت بالعربِ ، جعلتهم يضعون الجوار في المكانةِ العليا ، فقد غابَ الأمنُ عنْ بعضهم أحياناً ، فكانوا يلتمسون الاستقرارَ والأمنَ ؛ ليأمنَ الضعيفُ منْ ظلمِ القوي .

ـ وقد لجأ العربُ إلىٰ الحرمِ الآمِنِ قرب الكعبة المشرَّفة ، كما جعلوا زمناً للأمْنِ ، وهو الأشهر الحرم ، إذ لا تجوز فيها الحروبُ أو المناوشاتُ ، وهذه الأشهر أربعة[1] ؛ وهي ثلثُ العامِ .

---

(١) الأشهر الأربعةُ هي : رجب ـ ذو القعدة ـ ذو الحجة ـ والمحرّم . وسميت بذلك لأنَّ الله عَزَّ وجَلَّ حرّمها من عَهْد قديم ، والتزمت العرب بتحريمها . وقد أشارَ القرآن الكريمُ=

ـ ومنَ المعروفِ أنَّ الحياةَ الاجتماعيةَ في العصر الجاهلي لا يقوم على تنظيمها تشريعٌ أو قانونٌ ، لذلك نشأ الجوارُ وحمايةُ الجار ، وقويتْ أسبابُه حتىٰ غدا تقليداً اجتماعياً متّبعاً عند معظمهم .

ـ ولعلَّ نشأةَ حلفِ الفضولِ دليلٌ قويٌّ علىٰ إبرازِ أهميةِ أدبِ الجارِ والجوارِ في التّاريخ المكّي والعربي ؛ ولذلك نجدُ أنَّ المرأةَ كانتْ تجيرُ وتُقْبَلُ إجارتها ، أو يكون سببُ الجوارِ نابعاً منَ القرابةِ أو ما شابه ذلك .

إلا أنَّ أشهر ألوانِ الجوار ، وحماية الجار ، هو أنْ يطلبَ الضَّعيفُ من رجلٍ يوفِّرُ له الحماية ، وعندها يقبلُ الرَّجلُ أنْ يجيرَه ، وأنْ يدافعَ عنه .

ـ وفي تاريخِ الدَّعوةِ المحمديةِ العطرةِ في مكةَ صورٌ من

= إلىٰ الأشهر الحرم في قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ﴾ [التوبة : ٣٦] .

صُوَرِ الجوارِ وطلبِ الحمايةِ ، وقد فعلَ ذلك الحبيب المصطفىٰ ﷺ عندما رجع من الطَّائفِ ، وأراد دخول مكة ، فبعث إلىٰ المُطْعِم بن عدي أن يجيرَه فأجابه ، ثم إنَّ المطعمَ تسلَّح بأولاده وكانوا ستة أو سبعة ، وخرجوا حتىٰ أتوا المسجدَ ، فقامَ المُطعم علىٰ راحلته فنادىٰ : يا معشر قريش! إني قد أجرتُ محمداً ، فلا يؤذهِ أحدٌ منكم .

ـ ثم بعث إلىٰ الحبيبِ المصطفىٰ ﷺ أن ادخل مكة ، فدخَلَ المسجدَ وطافَ بالبيتِ ، وصلّىٰ عنده ، ثُمَّ انصرفَ إلىٰ منزلهِ ، والمطعمُ بن عدي وولده يطيفونَ به ، ولما أصبح خرج المطعم وبنوه في أسلحتهم فقالوا للحبيب الأعظم ﷺ : طُفْ ؛ واحْتَبَوا بحمائل سيوفهم في المطاف مدَّة طوافهِ ؛ وبينما هم كذلك ، إذ أقبل عليهم أبو سفيان ، وقال لمطعم : أمجيرٌ أنتَ أمْ تابِع ؟

فقال : مجير .

فقال : إذاً لا تخفر ، قد أجرنا مَنْ أجرتَ .

فجلسَ معه حتَّىٰ قضىٰ رسولُ الله ﷺ طوافَه[1] .

ـ ومن الطَّريف عند العربِ في جاهليتهم ، أنهم أجاروا الحيواناتِ والجرادَ ، فقد كان كليب بن ربيعة يجير الصيد ويحميه ، ويقول : صيدُ ناحيةِ كذا وكذا في جواري ، فلا يصيدُ أحدٌ منه شيئاً[2] . ولهذا ضُرِبَ به المَثَلُ في العزّ فقيل : أعزُّ من كليب وائل ، وكذلك فعل مدلج بنُ سُويد الطَّائي الذي نزلَ الجرادُ حولَ خبائه ، فمنعَ أحداً أنْ يصيدَه حتىٰ طارَ وبَعُدَ عنه[3] .

ـ هذا وقصَصُ الجوارِ والإحسانِ إلىٰ الجار وحمايته كثيرة منثورة في تاريخنا الزَّاهر ، ونظرة سريعة إلىٰ كُتب المصادر ،

---

(١) انظر : تاريخ الطبري (٢/ ٣٤٧) ؛ وطبقات ابن سعد (١/ ١٩٦) ، والسيرة الحلبية (١/ ٣٨١) مع الجمع والتصرف .

(٢) انظر الأغاني (٥/ ٣٩ و ٤٠) دار الكتب العلمية ط ٢ ١٩٩٢م ، وانظر كتاب جمهرة الأمثال (١/ ١١٠) .

(٣) انظر : مجمع الأمثال للميداني (١/ ٢٢١) .

كعيون الأخبار ، والأغاني ، والعقد الفريد ، والأمالي ، وبهجة المجالس ، وغيرها تعطي صورةً واضحةً عن هذا الأدب المقدّس عند أسلافنا وأجدادنا ، ولا نستطيع الاسترسال في هذا الموضوع لأنه واسع ، ولأنَّ المقام هنا يقتضي الإشارة والإيجاز ؛ ولكني أستطيعُ أنْ أوردَ هنا أبياتاً جميلة راقصة المعاني لأبي جعفر العدوي ، تمثل تلكم الأخلاق الحِسان ، في هذا المجال النبيل فيقول :

شِرىٰ جارتي ستراً فضُولٌ لأنَّني ... جعلتُ جفوني ما حييتُ لها سِترا

وما جارتي إلا كأمّي وإنَّني ... لأحفظُها سِرّاً وأحفظها جهرا

بعثتُ إليها انعمي وتنعّمي ... فلستُ مُحِلاً منك وجهاً ولا شَعرا[1]

* * *

(١) انظر كتاب : المنتقىٰ من مكارم الأخلاق ومعاليها للخرائطي (ص ٦٠) .

الفصل الثالث

الجار في اللغة

ـ حظيتْ كلمةُ الجارِ بمساحةٍ واسعة عند العلماء في كتبِ اللغةِ العربية ، وفي معاجمها .

ـ ومن معاني الجار الذي تُطالعنا به كتبُ المعاجم :

« الجار » : قال ابنُ الأعرابيّ : الجار الذي يجاورك بيت بيت .

ـ ومن معاني الجار :

« الجار » : النّفيح : هو الغريب .

و « الجار » : الشَّريك في العقارِ .

و « الجار » : المقاسمُ ؛ والحليفُ ، والنَّاصرُ ، والزوج .

والجارُ الذّمث : الحَسنُ الجوار .

والجار الصّنارة : السَّيِّىءُ الجوار .

والجار في الذّم : الجار المنافق .

والبراقشي : وهو المقلوبُ في أفعاله .

والحَسْدلي : الذي عينه تراك ، وقلبه يرعاك .

ويقال : الجارة : امرأة الرجل ؛ وهو جارها .

فالمرأةُ جارةُ زوجها ، لأنه مؤتَمرٌ عليها ، وصار زوجها ، لأنه يجيرها ويمنعها ولا يعتدي عليها ، وقد سمّىٰ الأعشىٰ في الجاهلية امرأته جارة فقال :

أيا جارتا بيني فإنَّك طالِقه وموموقةٌ ما دمتِ فينا ووامقَه

ـ ويقال : جاورت في بني هلال : إذا جاورتهم .

وأجار الرجل إجارة وجارَةً .

ـ واستجاره : سألَه أنْ يجيرَه ؛ وفي القُرآن الكريم : ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة : ٦] .

ـ قال الزجّاج ـ رحمه الله ـ : المعنىٰ : إنْ طلبَ منك أحدٌ منْ أهلِ الحربِ أن تجيره منَ القتلِ إلىٰ أن يسمعَ كلامَ اللهِ فأجره ؛ أي : أمّنْه ، وعرّفه ما يجب عليه أن يعرفَه منْ أمرِ اللهِ تعالىٰ الذي يتبيّنُ به الإسلام ، ثُمَّ أبلغهُ مأمنه لئلا يُصاب بسوءٍ قبل انتهائهِ إلىٰ مأمنهِ .

والجار : الذي أجرته منْ أنْ يظلمهُ ظالم .

ـ ويقال للذي يستجير بك : جار .

وللذي يجير : جار .

ـ والجارُ والمجيرُ : هو الذي يمنعك ويجيرك ، واستجاره من فلان فأجاره منه .

ـ وأجاره اللهُ من العذابِ : أنقذه .

ـ وفي الحديث : « ويجير عليهم أدناهم » ؛ أي : إذا جار واحد من المسلمين حرٌّ أو عبدٌ أو امرأةٌ واحداً ، أو جماعة منَ الكفّار وخَفَرهم وأمّنهم ، جاز ذلك على جميع المسلمين لا يُنْقَضُ عليه جواره وأمانه .

ـ والمجاورة : معناها الاعتكافُ في المسجد ، وفي الحديث أنَّه كان يجاوِرُ بِحراءَ ؛ وكان يجاورُ في العَشْر الأواخر من رمضان ؛ أي : يعتكف .

ـ وأمّا المجاورُ بمكةَ والمدينةِ ، فيُرادُ بها المقامُ مطلقاً غير ملتزمٍ بشرائطِ الاعتكافِ الشَّرعي[1] .

ـ وفي كلياته يقول الكفوي عن الجار :

« الجارُ الجنب » : أي البعيدُ الذي لا قرابة له ، كما أنَّ الجارَ ذا القربىٰ هو الذي قرّب جواره ، أو له مع الجوارِ قربُ اتّصالٍ بنسبٍ أو دِين .

والصَّاحب بالجنْب : أي القريب ، وصاحبك في السَّفر . والجار الجُنُب ؛ بضمَّتين : وهو جارك من غير قومك[2] .

---

(١) انظر : لسان العرب (٤/ ١٥٣ـ١٥٦) مادة « جور » بشيء من التصرف والاختصار ، وانظر المصباح المنير (١/ ١١٤) مادة « جور » .

(٢) انظر : الكليات لأبي البقاء الكفوي (ص٣٥٥) .

ـ ومن خلالِ هذه الزيارةِ الحلوةِ في رياضِ المعاجم ، وروضِ اللغةِ ، واقتطاف جنى زهْر أدب الجار[1] ، تبدّىٰ أنَّ معنىٰ الجارِ والجوارِ ؛ هو النَّصرُ والحمايةُ وإعطاءُ الأمنِ وردُّ العدوان ، وقيامُ الرجلِ أو الجماعةِ أو العشيرةِ بحسن الجوارِ وجودةِ الحماية ، كما ظهرتْ لنا بعضُ المعاني الخفيّةِ لهذه الكلمةِ منْ خلالِ ثنايا الكشفِ في المعاجم ، وكتب اللغة .

* * *

(١) مِنْ ذلك قول جعفر بن محمد : حُسْنُ الجوارِ عمارة للدّار ، وامتدحتْ أمُّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها مجاورة الأنصار فقالت : ما تبالي المرأةُ إذا نزلتْ بين بيتين منَ الأنصارِ صالحين ألا تنزلَ من أبويها .